في روايا الفصور

الزواج المورغاني

أو غير المتكافئ

لامين الفريّب

تحت الافرنج كلمة مخصوصة للزواج الذي يعقده بين شخصين غير متكافئين . كأن يكون الرجل نبيلاً عالي الاصل والمرأة حقيرة . فدعوهُ الزواج المورغاني نسبةً الى مورغانا الجورية التي تزلت في عهد الخرافة الوثنية الى الاقتران بواحد من بني البشر . وقد عرفنا لهذه الكلمة مرادفاً مشتقاً عند الاتراك في لقب « داماد » . فقد اعطوه لكل رجل عادي غير « ازرق الدم » يتيسر لهُ أن يصاهر الاسرة السلطانية . اما العرب فلم نجد بعد في كتبهم كلمة تدل على هذا النوع من الزواج . ولا ندري أكان سبب هذا الاهمال عندهم ان ملوكهم لم يزوجوا بناتهم لمن كان دونهم . ام بلغت المساواة عند العرب حداً لم يدع فرقاً بين الاسر . وعلى كل حال احتقر الافرنج هذا الزواج المورغاني أو الداماوي حتى وصفوهُ بالزواج الاعسر . ودعوهُ « شبه زواج » او زواجاً تحت الوردة وأن جمهور الشعب احترامهُ حتى عومل في الامور العامة غالباً معاملة زواج غير شرعي

مع ان الكنيسة المسيحية تباركهُ لانها وهي دولة روحية ، لا تفرق بين النفوس . ولا ترى للملك امامها اقل ميزة على ارعايا . فهي تعد الاولاد شرعيين لكل زواج تعقدهُ . اما الاشراف انفسهم من الافرنج فلا يسمحون لهؤلاء الاولاد بان يحملوا اسم والدهم العائلي والقابهُ ، او يرثوا عرشهُ وثروتهُ واملاكهُ . اللهم الا ما ثمَّ اتفاقٌ خطيٌّ عليهِ بين الاب والام عند عقد الزواج

ومعلوم ان نطاق الزواج بين الاشراف والبلاء يضيق احياناً حتى يُضطرَّ بعضهم الى الاقتران بأقرب الانساباء . والدم المتغذي من نفسهِ لا يلبث أن يضعف ويضنى ويفقد خواصهُ الحيوية . فلم يجدوا بدّاً من التساهل في امر هذه الزيجات . وعند وقوعها غضوا الطرف عنها تسامحاً مع الطباع البشرية . لكنهم حرموها كلَّ اعتراف رسمي . وجعلوا من يلجأ من الاشراف اليها يخسر في الحال حقوقهُ الشرعية في العرش أو ما يمائلهُ من الميراث . ومنعوا الاولاد الناتجين منها من أن يُزَوِّجُوا بنيهم ويعدوا منهم او مثلهم . وكل ذلك لاجل حفظ الدم — في رأيهم — نقيًّا طاهراً في الاسر النبيلة غير مختلط بقطرة واحدة مريبة

مثال ذلك ان النبيل الصحيح في نظر ابناء بوربون وهبسبرج كان من يستطيع ان يعد ستة عشر جداً من جدوده على الوجهين ، كلهم من ذوي الشرف الصميم . ولما سلم المحسوبون بزف الارشيدوقة

مارى لويز الى نوليون الاول كان ذلك منهم تنزلاً وتضحيةً بتلك الفتاة على مذبح المصلحة السياسية

في عام ١٩٠٤ أطلق برنكيب السري في سراجيفو الرصاص على الارشيدوق فرنز فرديناند ولي عهد النمسا وزوجته . فقتلهما واشعل الحرب العالمية التي التهمت في الدنيا كلها الاخضر واليابس ومع ان هذه المأساة المروعة ألبست جميع البشر ثوب الحداد في ما بعد ، لم يسمح النمسويون بدفن الارشيدوق القتيل بالحفاوة المعتادة لمثله ، لمحض ان زوجتهُ صوفيا المقتولة معهُ كانت شريكتهُ في الدفن . وهي لا تستحق في نظرهم المظاهر التكريمية التي خصّها القوانين والتقاليد بمن هم في مكانته . فقضوا بذلك عليه كيلا تنال امرأته عن طريقه شيئاً لا تستحقهُ

ولم تكن زوجة الارشيدوق حقيرة بحد ذاتها . لكنها لم تكن من مرتبة سمو الامبراطوري. وقد توصلت بذكائها وحكمتها الى رفع مكانتها في اعين النبلاء النمسويين حتى رقاها صاحب العرش فرنسيس يوسف من رتبة كونتة الى دوقة . وسمح لها بحضور حفلات البلاط الرسمية على ان تتخذ لها مقاماً في صف التشريفات ، بعد كل سيدات الاسرة الهبسبرجية . مع ان مقام زوجها ولي العهد ، لو هي كانت من ذوات الدم المتناهي في الزرقة لخوّلها ، بسبب موت الامبراطورة ، مركز ربة القصر بلا منازع . وكان زوجها عند اقترانه بها قد تخلى عن حقوقه في وراثة العرش . لكن لطافتها وحسن سلوكها ما لبثا ان أعادا اليه ذلك الحق ، على ان يُحرمهُ اولادها في ما بعد

كانت صوفيا هذه كونتة بوهيمية فقيرة من اسرة شوتك ، ولكن متعلمة ادبية تعمل مربية لثانية اولاد في قصر الارشيدوق فريدريك . فأحبها فرنز فرديناند الذي جعلهُ مصرع ابن عمه رودلف في ما يرتجح وارثاً للعرش . وكان قبل رؤيتها يكره الزواج ويرفض الدعوات المتوالية عليه من قصور الملوك لهذا الغرض . واقترن بها متنزلاً بمحض ارادته عن كل حق لهُ في العرش لكنها اجتهدت كثيراً في مراعاة الاصول المرتبة واستراز الفرص السانحة دون استعجال الحوادث ولا استبطاء الامور المرهونة باوقاتها . ولما استقبلها اخيراً الامبراطور غليوم الثاني الالماني زوجةً لولي عهد النمسا وصرف النظر عن كل الملحوظات المختصة بها ادرك الناس ان لها في الدوائر العليا مساوين كباراً يشدون ازرها . ويكفي ان بوهيميا باسرها وجدت بمحض الامل في ان تجلس فتاتها يوماً على العرش الامبراطوري عاملاً يستزيدها اخلاصاً لهذا العرش وتعلقاً به

ومن المعلوم ان الامبراطور فرنسيس يوسف لم يستروح طول عمره من تأثير الصدمة الهائلة التي اصابتهُ : مصرع ابنه رودلف الذي كان السان عينه . فلم يجسر احدٌ على مقاربته في موضوع الخلافة بعد تصريحه مرةً بأن «موضوع الخلافة لا يُطرح للبحث الاّ بعد موتي . ومن عادة الذين لا يجدون مطمعاً في العيش ان يعيشوا طويلاً » . وقد صدق في حدسه فعاش طويلاً

جداً . ولعله كان في قلبه يلوم نفسه على معارضته لرودلف في هواه ويتمنى لو عاش هذا الولد كما يشاء متمتعاً بحبوته الوضيعة على ان يلقى هذه النهاية البرائعة ويضيف الى سلسلة بلايا الهبسبرجيين حلقة جديدة

كان رودلف قد اقترن دون محبة بالاميرة ستيفاني ابنة ليوبولد الثاني ملك بلجكا . ولم تستمل هذه العروس بملكها عواطف احد من سلالة هبسبرج . ولاسيما زوجها . فقد ضايقته بغيرتها (الصحيحة الاساس) وزادته نفوراً منها ، وابتعاداً عنها ، حتى تحول ميله عنها أخيراً الى بغض شديد لها . وصار يأنف بعض رؤيتها ويشمئز من سماع صوتها . فلما رأى الكونتة تسيرا ابنة احدى الاسر المقبولة في البلاط النمسوي طار لبه وعميت عيناه الا عنها ، وغرق في بحر حبها الى قمة رأسه . وفكر طويلاً في التخلص من امرأته والاقتران بها . وفاوض أباه الشيخ في التخلي عن حقوقه في العرش . وطلب من قداسة البابا اذناً خاصاً بالطلاق من ستيفاني فأبى عليه الحبر الاعظم ذلك طبعاً . كما وبخه أبوه على هذه الفكرة السقيمة توبيخاً صارماً . وبعد ذلك ذهبت الكونتة تسيرا لزيارته في مقر الصيد والقنص في مايرلنج . فلم يخرج احد منهما حياً

ومع ان الامبراطور عرف حالاً وقائع الفاجعة التي ظلت طول عهده مكتومة عن العالم لم يتخذ قراراً بحق احد مكتفياً بابعاد الاشخاص المطلعين على تفاصيلها الى اماكن نائية حيث ضمن العرش لهم معاشاً جيداً لقاء الصمت الابدي التام . فلما الامبراطور المفجوع بابنه أراد معاونة ولي العهد الجديد في أمر أباه على وحيده وتكيله بسببه . وكان بالطبع يستغرب يد القضاء والقدر التي جعلت بعد هذه الفاجعة الوارث الجديد لعرش النمسا من الصنف الذي فقد المجد الوحيد بسببه

وبالطبع لم يتبجح فرنسيس يوسف لاحد بتحول رأيه . لكنه على كل حال لان بعد الفاجعة . واذا ذكرنا انه كان على صوابه شوتك ان تتغلب على مطامح ستين ارشيدوقاً وارشيدوقة يتقدمونه مقاماً ، وعلى اصول تقتضي ارجاع ثلثمئة سنة من الجدود الى الوراء ، وعلى التزل الرسمي الذي من زوجها عن كل حقوقه ، عرفنا أهمية النعمة التي كان على هذه المرأة ان تحوضها . لكن بركيب السري وضع لكل هذه الامور حداً في صيف ١٩١٤

***

وفي عام ١٩٠٩ مات ليوبولد الثاني ملك بلجكا جد الملك ليوبولد الثالث الحالي . فانكشف عند موته سر زيجته المورغانية بالبارونة دي‌فوغان . هذه المرأة المتناهية في الذكاء كانت حقيرة الاصل ابنة بواب فقير . اقترنت أولاً بضابط صغير فلم تسعد بزواجها . وعاشت مدة طويلة عيشة غير مرتبة . ومع ذلك تمكنت بدهائها وسحر عينيها من التسلط اخيراً على قلب ليوبولد بعد ما اخشوشن وتصلب . وكان من أدهى رجال عصره في الادارة والسياسة والتجارة .

ولم تقف معهُ عند حد الحب والغرام . بل اجبرتهُ على الاقتران بها بحسب نواميس الكنيسة . فصار اولادها منهُ شرعيين . واستولت بالتالي على جانب كبير من ثروته الواسعة ، مع ان ليوبولد الثاني كان من اشهر الملاعين بقلوب النساء في عصره ، وقد انشأ بعض من اجل النساء واذكاهن علاقات سرية به . وبالطبع طمحت كثيرات منهنَّ الى المقام الذي تفردت البارونة دي نوغان بالاستيلاء عليه

والزواج المورغاني يحفظه النبلاء غالباً سريًّا ، تفادياً من الاقاويل اللازمة لهُ والصعوبات الممكن تكديسها في سبيله . على ان هذا الكتم يثير دائماً في اذهان العامة ريباً واشتباهاً بما يخالف القوانين . مع انهُ في واقع الحال ليس خالياً من القداسة الكنسية كما رأيت . لكن الشعب لا يكتفي بذلك بل يتشفى في احترامه على التقاليد والعادات . ودونك دليلاً على ذلك:

عندما اقترن الغرندوق بولس الروسي بالسيدة بتلكور اسرع القيصر نقولا الثاني الى طرده من روسيا . فعاش مدة طويلة في باريس منفيًّا من بلاده . مع ان نافيهُ المبجَّل نفسهُ كاد في صباه يعقد لنفسه مثل هذا الزواج . فقد ولع جلالتهُ قبل ان يصير ذا جلالة براقصة بولندية واستولدها صبيين تعلما على نفقته في مدارس باريس ولم يسمح لها بدخول روسيا . بينما والدتهما كانت حرة في الدخول والخروج . واخيراً شاد لها قصراً في بطرسبرج سنة ١٩٠٦ اما الكنيسة الارثوذكسية فلم تعترف بتاتاً بذينك الولدين . حال كونها اعترفت بزيجة الغرندوق بولس وعلى الرغم من ذلك ظل الغرندوق بولس مع زواجه المقدس مطروداً من الهيئة الاجتماعية بينما القيصر نقولا مع زواجه غير الشرعي بالراقصة البولندية ظل مبجلاً مطاعاً

ولا بدَّ ان القيصرة اليكس التي ولدت لنقولا الثاني اربع بنات قبلما اتحفتهُ بولد قضت اعواماً طوالاً تتحسر على كون زوجها قد ولد صبيين من سواها وهي لا تلد غير البنات

وقد انتبه القارىء طبعاً الى أن ما حدانا الى طرق موضوع الزواج المورغاني هو طلب ادوارد الثامن ملك انكلترا أن يعقد لهُ زواج كهذا على السيدة واليس ورفيلد مطلقة ارنست سمبسون وزوج آخر قبلهُ . وأن المستر بلدوين رئيس الوزارة قال في مجلس الامة المؤيدي رأي الملك ان مثل هذا الزواج غير ميسور في القانون البريطاني

وهو ادرى طبعاً بما يوجد ولا يوجد في دائرة القانون . اما نحن فنعلم ان الملك جورج الرابع ، عم الملكة فكتوريا الشهيرة ، وكان يدعى « اول سيد في اوربا » The First Gentleman in Europe اقترن بالسيدة فتز هربرت ، وطلقها واقترن قبل ارتقائه الى العرش بالاميرة كارولين اوف برنسويك . ويؤثر عنها انها هي ايضاً لم تطق معاشرتهُ فعادت الى منزلها في فرنسا ولم تعد الاَّ عند ما لاح لها بارق امل بان تصير ملكة . لكن زوجها كان عفنها . وقد

حاول تطليقها سراً . ولما اقبلت يوم حفلة التتويج الى وستمنستر لتشترك واياهُ في الجلوس على العرش أقفل الباب في وجهها ولم يسمح لها بالدخول. والملك جورج الاول اقترن بالدوقة اوف كنديل وهي ذات دم غير ملكي . والملك وليم الثالث اقترن بانكونتة ارغسطا فون هوروك الالمانية

ثم ان جد الملكة ماري الوالدة الحالية البرنس تك ابن ملك فرنبرج اقترن بكونتة هنفارية فرانا ظل عدة اعوام غير معترف به . ثم قبلت بعد ذلك وجعلت دوقة تك وصار ابنها دوقاً واقترن بالاميرة ماري ادلائيد وابنتها الاميرة ماري هي الملكة الوالدة في انكلترا اليوم

ومما يستحق الذكر في هذا المجال ان الاميرة فكتوريا ابنة شقيق الملك ادوارد السابع احبت السير الكسندر رمزي شقيق ارل دلهوزي الحالي . ولم يكن على الاطلاق كفأً لها . فتخلت عن القابها ومقامها واقترنت به ، رافضة يد الفونسو الثالث عشر ملك اسبانيا الذي عاد فاقترن بابنة عمها الاميرة فكتوريا ابنا

ثم ان جورج الخامس ملك انكلترا والد الملك الحالي كاد يقع لهُ في اوائل صباه حادث يقرب من الزيجات المورغانية . والمصدر الذي نستقي معلوماتنا منهُ لا يفصلها بصراحة بل يكتفي بالاشارة الى ان جدتهُ الملكة فكتوريا كانت وقتئذٍ في قيد الحياة . وتقلوب المتحدرة منها وثاق كان شديداً جداً في عهدها . فاستمعتُ ولم تشدد عليه النكير كما فعل فرليس يوسف النمسوي بوحيده . بل ذكرتهُ بلهجة حازمة بسمو مقامه والولجيات التي عليه لشخصيته المحترمة اولاً في عيون الناس . ولاولئك الناس ثانياً . ولاجداده العظام ولتاريخ الانكليزي ثالثاً . وارتهُ السهولة في ان يختار لنفسه رفيقة حرية بان تجلس يوماً على عرش بريطانيا العظمى . وهكذا ثاب الى الفتى الياقع رشاده ، وسدَّ المنفذ المفتوح في قلبه الهيب الباكر المتقد حوله

وكان ايتل فريدريك ثاني ابناء الامبراطور الالماني غليوم الثاني ناوياً ان يقترن باحدى راقصات برلين لولم يتدارك الامر والده ويرسلهُ الى فرقة عسكرية نخبة في زوبوت على شاطىء البلطيك . فمكث هناك سنة اشهر . ثم ابرق الى والده قائلاً انهُ يتوب عن حب الراقصات جميعاً. ويقترن باية اميرة يختارها جلالتهُ لهُ . وبعد اربعة اسابيع احتفل باكليل سنة ١٩٠٦ على صوفيا شرلوت غرندوقة اولدنبرج . لكنهُ لم يكد يكمل شهر العسل حتى هبت في قرارة قلبه عادته الكامنة في البدن ، واحيا ليلة ساهرة لبعض الراقصات لم تحضرها الغرندوقة طبعاً لانها كانت في الطريق عائدة الى بيت ابيها

فاستدعاه غليوم اليه سراً ، وبقال انهُ ضربهُ ضرباً مبرحاً جعلهُ يهرب من امام ابيه احمر الوجه متهيجاً . وعلى كل اصلح الامبراطور بين الزوجين فتصالحا وعاشا كما يمكن الى ان نشبت الحرب العالمية فانتظم الامير مع اخوته في صفوف الجيش وعملت صوفيا في الصليب الاحمر .

وبعد الحرب تغيرت الاحوال والمزاكر فلم يكترث احدهما للآخر وتبادلا تهمة الخيانة الزوجية وانتهى بهما الامر الى الطلاق في ديسمبر ١٩٢٦ وكانت صوفيا هذه اشد الناس ابتهاجاً بسقوط حكم هوهنزولرن لانهُ جعل طلاقها ممكناً من دون اذن الامبراطور. لان غليوم الثاني كان صارماً جداً في هذه الامور، صرامةً لان فيه بعد سقوطه عن العرش الى حد انهُ اجاز لنفسه الزواج بعد قليل من وفاة الامبراطورة التي كان يحبها حباً جماً

ومن حوادث هذا النوع في المانيا ان الامير بواكيم البروسي ابن حاكم برنسويك أحبَّ المثلة صلزر. فدرى أبوهُ بعزمه على الاقتران بها. فسجل في وصيته الاخيرة مادة تشرط عليه في حالة زواجه بفتاة غير نبيلة ان يتخلى عن قسطه من ميراثه الكبير. فلكي يبطل الامير بواكيم فعل هذه الوصية أخذ الفتاة الى لندن حيث استأجر نبيلاً نمسويًّا فقيراً يدعى البارون فكتور فون لينبرج فعقد لهُ عليها لقاء مبلغ معين من المال. وبعد الاكليل على الاثر افترق العروسان كلٌّ في سبيله فعادت الصبية الى المانيا تطلب من محاكمها الطلاق من زوجها الشرعي النبيل النمسوي بحجة هجره اياها واهماله أمرها. لكن الامبراطور غليوم الثاني درى بالأمر. وكان رضاه بمقتضى قانون أسرة هوهنزولرن الخاص ضروريًّا لحل الزواج بين أفرادها شرعيًّا — حتى ان كان الاكليل كنسيًّا فرقضُ ذي الجلالة يجرحه ويلغيه — فأصدر الامبراطور أمرهُ قبل اصدار المحكمة حكمها بالطلاق، بنفي البارونة النمسوية فون لينبرج من المانيا بحجة انها أجنبية غير مرغوب فيها. وأرسل في الوقت عينه الامير بواكيم الى احدى المستعمرات الالمانية النصية في افريقيا في مهمة عسكرية

فنفى الامير مكرهاً لكنهُ بعد اثني عشر شهراً من مكاتبات سرية بينهُ وبين حبيبته التي يسمو رضاها في عينيه على رضى كل الامبراطرة ومن جرى مجراهم، فرَّ من مقرّه من دون إذن ولحق بها في أوربا. فلم يسع الامبراطور عند ذلك الاَّ طرده من الجيش الالماني ومن المانيا جميعاً مشيراً الى سفرائه بالايعاز الى الحكومات الأجنبية كي تمنع عنهُ التكريم المعتاد للذين في منزلته

ولم يكن هذا الأمر مهمًّا لديه، فقد تخلص من حرمان أبيه من الميراث العظيم. ونال قسطهُ الوافر من المال المتروك. وعاش مع زوجته المحبوبة خارج المانيا بترف وسعادة، الى ان خلع الشعب عن العرش الالماني ذلك الامبراطور المتحكم في حظه. فصار حرًّا مع زوجته التي لا تحمل لقب اميرة بحسب اصول التبلاء المشروعة والمسجلة في تقويم غوثا

ولا شك ان الناس قد رحبت صدورهم اليوم عن ذي قبل واصبحوا لا يشاركون الاسر النبيلة في كل آرائها في الزيجات المورغانية، وادركوا مع الشاعر العربي

ان الفتى من يقول هاءنذا ليس الفتى من يقول كان ابي